ما هو الناسخ والمنسوخ وما علاقته بفهم الوحي

كتبه غريب بتاريخ الأحد ١٤ ذي الحجة ١٤٤٢

العام والخاص، والناسخ والمنسوخ، والمقيد والمطلق، مصطلحات لطالما استخدمت لصد الناس عن فهم وتدبر وحي الله عز وجل قرآنا وسنة.

فعند قولك لأحدهم أنا أتبع القرآن والسنة، يقول لك وكيف يمكنك اتباع القرآن والسنة وأنت لا تعرف الناسخ من المنسوخ، ولا العام من الخاص، ولا المقيد من المطلق؟

فما حقيقة هذه المصطلحات، وكيف نجمع بينها وبين أن الوحي مبين يسير كما أخبر ربنا عز وجل؟

سوف أحاول الإجابة على هذا السؤال من خلال المحاور التالية:

- كيف انسلخنا من كتاب الله
- كيف نفهم وحي الله
  - لسان العرب
  - الإيمان بالكتاب كله
  - الناسخ والمنسوخ
  - العام والخاص

كيف انسلخنا من كتاب الله

سبق وأن بينا في العلاقة ما بين النقل والعقل أنه ليس لنا أمام وحي الله عز وجل غير السمع والطاعة، كما سبق وبينا في خصائص الوحي أنه مبين يسير، فلم تبق حجة في عدم اتباع الوحي، وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم، فأخبتت للوحي قلوبهم واستناروا بنوره، واهتدوا به، إلى أن تقادم العهد وطال الأمد على البعض.

فبدأ تعدي حدود الله التي حد لنا في التعامل مع وحيه، فتحولت من السمع والطاعة، إلى جعل نصوص الوحي مادة للنقاش، تعرض على العقول فتقبل منها ما تقبل، وترفض منها ما ترفض، والعياذ بالله.

من ذلك قول بعضهم أن الله لم يكلم موسى صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله عز وجل، وازداد الأمر سوءا عندما اعتمدت تلك الأجيال منطق الأغريق للتعامل مع النصوص ومع الذات الإلهية، فظهرت الفرق العقدية المختلفة، كالأشعرية، والمعتزلة، والقدرية، ونبذ الوحي وراء الظهور.

مع تقادم الأجيال لم يبق من نصوص الوحي إلا رسمها، فالقرآن أنزل لمجرد القراءة والتغني وحسب، فالعلم لا يطلب فيه وإنما يطلب في مثناة البشر التي امتلأت منها المكتبات، أما السنة فهي ترف فكري للتباهي عندهم

هذه الحال لم تكن لتكون لولا تعد حدود الله عز وجل، والقيام بحملة شرسة ومنظمة لصد الناس عن الوحي كمصدر للتلقي، هذه الحملة تمثلت في أنه حتى تتمكن من الاستفادة من الوحي يجب أن تتقن قبله عدة علوم منها:

المنطق اليوناني، والبيان والبلاغة والصرف والنحو، والتفسير، وتعرف علم الأصول فتعرف العام والخاص والمقيد والمطلق والناسخ والمنسوخ، واللائحة تطول، مما يوهم السامع أن الوحي طلاسم الاستفادة منه أمر يستحيل تحقيقه نظرا لكل هذه العواقب التي يجب تجاوزها.

لذلك نكتفي بأن نقرأه, ونحرص حرصا شديدا أن لا يصل إلى حناجرنا, حتى لا نضل به, فنحن لا نمتلك أدوات فهمه, وفي المقابل عندنا المتون التي نسميها علمية فيها زبدة القرآن نكتفي ونريح أنفسنا مما لا طاقة لنا به.

هذه الحملة نجحت في عزل الناس تماما عن الوحي وجعلهم يتخبطون في الظلمات لا يهتدون سببلا, كافرين بالوحي كما بينا سابقا ويصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم

يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم

ويستوي نزول الوحي من عدمه بالنسبة لهم, فهم لا ينتفعون به, فصاروا كمن أخبر الله عنه في قوله:

﴿وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذي آتَيناهُ آياتِنا فَانسَلَخَ مِنها فَأَتبَعَهُ الشَّيطانُ فَكانَ مِنَ الغاوينَ۝وَلَو شِئنا لَرَفَعناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث ذلِكَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]

حول كيف تم عزل الناس وحي الله تدبرا وفهما ليسهل تحريف الكلم عن مواضعه فيما بعد هذا المحاضر يسلط الضوء

كيف نفهم الوحي

اعلم هداك الله أن ربك بين كتابه ويسره فلا عذر لك في عدم فهمه, وبين سبحانه أنه أنزل الكتاب لتتدبره وتعمل بمقتضاه, فقال

‹كِتابٌ أَنزَلناهُ إِلَيكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلبابِ› [ص: ٢٩]

وهذا يعني أنك قادر على فهمه والاستفادة منه, فالله لم يكلفك بتدبره وأنت أصلا عاجز عن فهمه كما يقول المضلون عن سبيل الله.

واعلم أن ما جعلوه من شروط في فهم كتاب الله بعضه باطل كالمنطق اليوناني، وبعضه مندرج في لسان العرب, وإليك تفصيل ذلك

لسان العرب

إن كتاب الله عز وجل أنزل بلسان عربي مبين, فلسان العرب إذا أداة لا بد منها لفهم الوحي قرآنا وسنة, ودليل ذلك قوله سبحانه

‹بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ› [الشعراء: ١٩٥]

ولكن أبشر, فالوحي أيسر وأبين كتاب بلسان العرب, فالله هو من بينه ويسره, لذلك لشدة يسره تستطيع فهم معاني بعض الكلمات من خلال السياق نظرا ليسر الوحي وبيانه, مثال ذلك قوله سبحانه

<اللَّهُ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقدِرُ وَفَرِحوا بِالحَياةِ الدُّنيا وَمَا الحَياةُ الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إِلّا مَتاعٌ> [الرعد: ٢٦]

فتفهم أن كلمة يقدر الواردة في الآية عكس كلمة يبسط ولو لم تكن تعرف معناها مسبقا, فما ذكروا من أدوات متعلقة باللسان العربي حق, ولكنها ليست مانعا لمن يفهم لسان العرب نظرا لبيان الوحي ويسره, ولو كانت حائلا لحالت دون فهم مثناتهم التي هي بلسان العرب وأهي أشد تعقيدا وغموضا من الوحي.

حول موضوع لسان العرب كأداة لفهم الوحي, هذا المقطع المرئي يسلط الضوء على هذه الجزئية :

الإيمان بالكتاب كله

اعلم هداك الله أن الإيمان بالقرآن والسنة يجب أن يكون بالكتاب كله نظرا لقوله سبحانه:

<... أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الكِتابِ وَتَكفُرونَ بِبَعضٍ فَما جَزاءُ مَن يَفعَلُ ذلِكَ مِنكُم إِلّا خِزيٌ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيَومَ القِيامَةِ يُرَدّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلونَ> [البقرة: ٨٥]

فلابد من جمع النصوص المتعلقة بكل باب حتى تكتمل الصورة, وهذا هو ما سيدفعنا للحديث عن مصطلحات العام والخاص والناسخ والمنسوخ وإليك تفصيل ذلك

الناسخ والمنسوخ

يجب أن نفهم أن النسخ لا يلحق إلا الأحكام، يعني أن جل القرآن ليس مما يلحقه النسخ أصلا، والنسخ هو إبطال حكم متقدم بآخر أتى بعده، ويظهر عند عدم إمكانية الجمع بين النصوص في المسألة الواحدة، مثاله قوله سبحانه:

‹يَسأَلونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسِرِ قُل فيهِما إِثمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثمُهُما أَكبَرُ مِن نَفعِهِما وَيَسأَلونَكَ ماذا يُنفِقونَ قُلِ العَفوَ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرونَ› [البقرة: ٢١٩]

هذه الآية لم تحرم الخمر وتركته في المباحات، إذا أضفنا إليها قوله سبحانه :

‹يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصابُ وَالأَزلامُ رِجسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ فَاجتَنِبوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ› [المائدة: ٩٠]

ندرك أن الخمر حرام قطعا، ونظرا لكون الخمر لا يمكن أن يكون حلالا وحراما في نفس الوقت، تقول أن آية المائدة نسخت آية البقرة.

لاحظ أن كلا من آية البقرة وآية المائدة، كلاهما مفهومة وواضحة جدا، فالنسخ لا علاقة له بفهم النص، وإنما بالحكم الذي أتى به النص، هل بقي كما هو أو نسخ.

العام والخاص

إذا أتى النص بحكم عام على نوع معين، تقول أنه عام وإذا أتى نص آخر بخلاف الحكم الأول في بعض أفراده نقول أنه خاص من ذلك العام، ولكي تتضح الصورة نأخذ المثال التالي:

<حُرِّمَت عَلَيكُمُ المَيتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الخِنزيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنخَنِقَةُ وَالمَوقوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلّا ما ذَكَّيتُم وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَستَقسِموا بِالأَزلامِ ذلِكُم فِسقٌ اليَومَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَروا مِن دينِكُم فَلا تَخشَوهُم وَاخشَونِ اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دينًا فَمَنِ اضطُرَّ في مَخمَصَةٍ غَيرَ مُتَجانِفٍ لِإِثمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ> [المائدة: ٣]

هذه الآية حرمت الميتة مطلقا، فكل ميتة محرمة بهذا النص، فإذا وجدنا نصا يحل لنا بعض أصناف الميتة نقول أن النص الأخير خصص عموم النص الأول، وهذا يتجلى في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أحلت لنا ميتتان ودمان

فهذا خاص من عموم تحريم الميتة.

لاحظ أن كلا النصين العام والمخصص يسيرين واضحين لا مشكلة في فهمهما مما يعني أن عدم معرفة العام والخاص ليست مانعا في فهم وحي الله عز وجل، وإنما هي متعلقة بالحكم الذي نص عليه الوحي هل عام أم مخصوص.

تلك هي أهم المصطلحات التي يخوفونك بها من وحي الله عز وجل، وهي كما ترى مقتضيات الإيمان بالكتاب كله، وليست عائقا في فهم النص كما يزعمون.